

الفصل السابع

الخطط الدبلوماسية

لم يكن أمير البحر ده رني Admiral de Rigny بحاراً فحسب ، بل كان أيضاً رقيباً دبلوماسياً ؛ وكان يعرف مخابى شرق البحر الأبيض لا تخفى عليه منها خافية . وكانت الحكومة الفرنسية بفضل تقاريره عالمة كل العلم بأحوال البلاد الواقعة في شرق هذا البحر ؛ ولم يفته في هذه التقارير أن يؤكّد أن الأسطول اليوناني أصبح أثراً بعد عين ، وحلت محله جماعات من القرصان . ولم يتردد في وصف الجنود اليونانيين بأنهم لصوص وقطاع طرق ، يهتمون بالسياسة الحزبية أكثر من اهتمامهم بالاتحاد لمحاربة أعدائهم المسلمين . ومع ذلك فقد كانت آراؤه آراء الرجل المسيحي الذي يؤمن بحق تقرير المصير ، والذي يرغب أن يرى الصليب يظفر بالهلال . وقد كتب في شهر يونية من عام ١٨٢٦ مذكرة طويلة يذكر فيها ضرورة التدخل العاجل ، ويصف : « الحال الطبيعية والخلقية السائدة في هذه البلاد البائسة (اليونان) ، وهي حال تزداد سوءاً كل يوم ، وقد تصل إلى حد يصبح فيه كل تدخل لخير أهل البلاد مستحيلاً أو عديم الجدوى » ^(١) .

و بينما كان هذا الضابط البحري الفرنسي يسابق الدعاة الإغريق وأصدقاءهم الفرنسيين إلى الضغط على الحكومة الفرنسية ليحملها على معاونة اليونان ، كان

(١) وزارة الخارجية الفرنسية — مذكرات ووثائق — اليونان رقم ٨ نقلها دون في كتابه السالف الذكر عن نوارين ص ١٠ .

اللورد استرتفورد ده رد كلف يضطلع بنفس هذه المهمة بالنسبة إلى الحكومة البريطانية . وكان صريحاً في موقفه إذ جهر بأن اليونانيين قد أظلم عليهم يومهم ، وأصبحوا لا ينجيهم من شقائهم إلا تدخل الدول في أمرهم^(١) ؛ وكان يؤمن بهذا إيماناً دفعه إلى أن يكتب إلى لورد ددلى Lord Dudley الذى خلف جورج كانتنج في وزارة الخارجية يقول :

« اصرف عنايتك في المعاهدة وأعنا على أن تقبل قبولاً حسناً ؛ وإلا فرجائى إليك يا سيدي أن تسمح لى بترك منصبى ؛ لقد أصبحت حياتى هنا في الأيام الأخيرة كحياة الكلاب ، ولكننى لأحب أن أعامل معاملة الكلاب »^(٢) .

وقد عنيينا بالكلام على موقف السفير البريطانى وأمير البحر الفرنسى ، لأن معاهدة ٦ يولية من عام ١٨٢٧ تركت أمر تنفيذ العهد من الوجهة العملية للرجال الدبلوماسيين المعينين لدى الساطان ، ولضباط الأساطيل المراقبة في شرق البحر الأبيض المتوسط . وإذا رجعنا بعد ذلك إلى محتويات الكتاب الأزرق والكتاب الأبيض وجدنا فيهما وثائق ماحقة بالمعاهدة جاء فيها :

الملحق (١) : « تعليمات موحدة النص مرسله إلى سفراء إنجلترا وفرنسا والروسيا في الآستانة »^(٣) .

الملحق (ف) : « تعليمات ثانية موحدة النص صادرة إلى قواد الأساطيل التابعة للدول المتعاقدة العليا »^(٤) .

ولقد بلغت هذه المعاهدة من الغموض حدًا يعجب به أشد المتحذلقين ؛

(١) ابن بول في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٤٥ .

(٢) المصدر عينه ص ٤٤٧ .

(٣) نوارين تأليف دون ص ٦٩ .

(٤) المصدر عينه ص ٧٧ .

ووقعت لأن ضماير أهل الغرب ترغب في طرد الأتراك من أوروبا ، وإن كانت نفوسهم لم تؤت من الشجاعة ما يكفيها لأن تسخر من مبادئ القانون الدولي ، وتجهر برغبتها من غير مداواة ولا موارد . ولذلك أضيفت مواد سرية إلى الشروط العلنية في الاتفاق ، ورضوا بأن تبقى هذه وتلك مبهمة إلى أقصى حدود الإبهام . وقد أضيفت هذه الملحقات « إرضاء لعواطف تركيا وإجابة لمطالب اليونان » ؛ وسننقل للقارئ شيئاً من الملحق حرف « ف » الذي يبدأ بالفقرات الآتية :

« لما قرر ملوك فرنسا وإنجلترا والروسيا عرض وساطتهم على الباب العالي ، كان عليهم أن يقدروا أن اقترحهم هذا ربما لا يلقى قبولا . ولذلك اتفقوا فيما بينهم على أن يضموا إلى المعاهدة مادة سرية ، تنص على أنه إذا لم يقبل الباب العالي وساطة الملوك الثلاثة بعد شهر من الزمان ، فإنهم سيتخذون الوسائل التي تمكنهم من فرض الهدنة التي يرغبون فيها .

« أما الوسائل التي تم الاتفاق عليها فهي تمكين العلاقات الودية بينهم وبين اليونانيين ، واتحاد أساطيل الدول المتعاقدة في العمل على منع وصول إمدادات من الرجال أو الأسلحة أو السفن أو الذخائر إلى بلاد اليونان أو إلى جزائر الأرخبيل »^(١) .

وإذا ذكرنا أن صورة من الملحق حرف « ف » كان مقرا إرسالها إلى أمير البحر ده رني لم يصعب علينا أن نتصور ما فهمه هو من هذه التعليمات . أما قائد الأسطول الروسي فلنسنا نعرف عن مزاجه شيئاً ، ولا نريد أن نفحص سجلاته لأن شخصيته تتوارى عن الأنظار في قصتنا . لكننا يهمنا أن نزيح

(١) المصدر عينه في نفس الصفحة .

الستار عن أعمال قائد العارة البريطانية . وأول ما نذكره أننا لا نستطيع أن نتصور رجلاً إنجليزياً يشغل مكانة ثانوية في مظاهرة بحرية إنجليزية — فرنسية — روسية . لذلك برز القائد الإنجليزي إلى الأمام . وكان القائد في هذه الحادثة هو السير إدورد كدرنجتون Sir Edward Codrington الذي قدر له أن يتصل شخصياً بإبراهيم . وكان قد تلقى الأوامر العامة المرقومة بحرف « ف » ، وهي أوامر واضحة في ذاتها ، ولكن كدرنجتون طلب تعليمات أكثر وضوحاً وصراحة ، ولم يتردد في أن يكتب إلى السفير البريطاني بالآستانة ليطلب إليه إرسال تعليمات إضافية . وسننقل عن مذكرات لورد استرغفورد ده رد كاف ما حدث بعدئذ ، فقد كتب السفير العظيم يقول :

« أبحر السير إدورد كدرنجتون من إنجلترا وشعاره المكنون في صدره وإن لم يكتب على لوائه هو « أقدم ياند ولا تهب »^(١) . ولم يكد يصل إلى مقره عند شواطئ المورة حتى بعث إلى برسالة سرية يعلن فيها ألمه من غموض المهمة المكلف بها ، ويطلب معلومات قد تساعد على إيضاح الطريق الذي سيسلكه . ولما كنت دائماً أؤمن بأن من الظلم أن تعطى أوامر مبهمّة إلى ضابط أقيمت عليه التبعات التي تستلزمها طبيعة عمله ، فقد صغت جوابي إلى أمير البحر في عبارات واضحة بقدر ما تسمح لي به التعليمات التي لدى ، فأجبت بما يأتي :

« أعملت الفكر وبحثت مع زميلي الكونت جيمينو Guilleminot ومسيو ده ريبو بير M. de Ribeaupierre في المسائل التي ذكرتها في رسالاتك السرية والتي قلت إنك تحدثت إلى الكابتن ده رني بشأنها ، استعداداً لما سوف تدعى إليه من العمل لتنفيذ الأوامر التي لديك ، إذا ما رفض الباب العالي مقترحاتنا .

(١) ند : هي اختصار إدورد .

(العرب)

وإجابة لطلبك أقول إنه فيما يختص بموضوع «التصادم مثلاً» ، قد اتفقنا على أن الإجراءات التي تتخذها يجب أن لا تتخذ بروح عدائي ، وعلى أن الحكومات المتحالفة تقصد بطبيعة الحال أن تتجنب بقدر المستطاع كل ما قد يؤدي إلى إشعال نار القتال ؛ ولكن مع هذا كله فإن منع استيراد المؤن الوارد ذكرها في التعليمات التي لديك ، هو أمر لا بد من تنفيذه بالمدفع في النهاية إذا دعت الضرورة واستنفدت جميع الوسائل الأخرى»^(١).

هذه الفقرة المقتبسة من مذكرات لورد استرتفورد ده رد كلف كبيرة الدلالة ؛ ولكنها لا تلقى ضوءاً ما على مزاج كدريجت . على أن عبارة «أقدم ياند ولا تهب» التي وردت في سياقها تدل على أن هذا الضابط الشهيم يمتاز بالجرأة والبسالة أكثر مما يمتاز بالحصاة والحذر . وتلك عوامل كبيرة الأهمية في نظرنا ، لأننا نعتقد اعتقاداً قوياً أن العامل الشخصي كثيراً ما يكون له أثر عظيم في تقرير مصير الأمور السياسية . ونضيف إلى هذا أن أيام الصيف ومبدأ الخريف ، وهي الأيام الطويلة التي قضاها القوم في ثغور اليونان وقرب شواطئها ، تكون في بعض الأحيان قائظة الحر منهكة للأعصاب ؛ وقد وقف إبراهيم أمام أسطول الحلفاء وجهاً لوجه عدة أسابيع . ولسنا نشك في أن مزاج كدريجت الشخصي الشاذ كان من العوامل التي لا بد أن يحسب لها حساب عند البحث في مشكلة نوارين من الوجهة التاريخية .

وقد أعاننا اللورد ده رد كلف على تفهم تلك المؤثرات إذ كتب في ذلك

يقول :

« لو كنت أعلم شيئاً عن مزاج سير إدورد الحاد المضطرب لوجب علي أن أتخشى ذكر عبارة « بالمدفع » وأن أستبدل بها العبارة الأكثر منها دبلوماسية

(١) لين بول في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٤٨ .

عبارة الإرغام أو الوسائل القهرية ، وذلك رغم أنى كنت أكتب إليه بصفتى الشخصية^(١).

ويلوح لنا أنه من السفسطة أن يحاول التفرقة بين « المدفع » و « العبارة » الأكثر دبلوماسية عبارة الإرغام أو الوسائل القهرية . وتذكرنا محاولة السفير الإنجليزى التفرقة بين تلك العبارات بأمثلة يذكرها فولر Fowler فى مقال له فى قاموس الاصطلاحات الإنجليزية الحديثة عنوانه « Genteelism » ويقصد به إغفال اللفظ الطبيعى العادى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، واستعمال مرادف له يظن أنه أقل منه ذبوعاً .

على أن هذه السفسطة الكلامية لن تخفى الحقيقة الواقعة ، وهى أن المعنى المفهوم من هذا الجواب الذى أرسل إلى كدرنجتن أنه يؤمر بالقتال إذا توافرت لديه شروط خاصة . ولم يكن لورد استرنفورد ده ردكاف حين كتب هذه العبارة المشثومة يعلم أن أمير البحر قد أرسل إلى أخيه فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٢٧ خطاباً يقول فيه :

« لم أشعر بالرغبة فى إذكاء نار الحرب مرة أخرى إلا فى هذا الوقت . وإنى لقوى الاعتقاد بأن الحرب قد تكون فى هذه البلاد أرحم وسيلة لحسم النزاع ؛ ذلك بأن عملاً واحداً من أعمال القوة كفيل بأن يخضع الباب العالى لإرادتنا ؛ وعندئذ نستطيع أن نفصل فى الأمر كله كما نشاء ، ونضم بعد ذلك قنذية إلى أملاكنا — وهو أمر فى نظرى مرغوب فيه كل الرغبة . لكن المفروض أننى سألتقى الأوامر التى أتصرف بمقتضاها ، وأن تصرفى لن يكون بوحى أفكارى »^(٢).

(١) المصدر عينه ص ٤٤٩ .

(٢) ذكريات من حياة أمير البحر السير إدوارد كدرنجتن نشرتها ابنته السيدة بوشير بلندن طبعة لنجيان وجرين وشركائهما ١٨٧٣ جزء ١ ص ٣٩٥ .

ومعنى هذا أنه لما تلقى كدرنجتن رسالة السفير ، كان ما اشتملت عليه من التعليمات ، وبخاصة الإشارة المتعلقة بالمدفع مما يتفق مع مزاجه الشخصى . وليس يخفى بعد ذلك أن أساطيل الدول المتحالفة ، التى كانت تسطع عليها أشعة الشمس المحرقة من الصباح إلى المساء ، كانت تحت إمرة فرنسى يغرى حكومته بالتدخل العاجل لمصلحة اليونان ، وإنجليزى « حاد الطبع مضطرب المزاج » تلقى من حكومته أوامر تتفق مع آماله الخاصة . وفى هذا أوضح دليل على أن موقف إبراهيم أمام أساطيل الدول العظمى كان موقفاً تحف به أشد الصعاب .

ولم تخف احتمالات هذا الموقف على محمد على ، بل أيقن أنه موقف غاية فى الخطورة . فهو إذا أبى أن يتراجع بسبب الخطة العدائية التى سلكها الإنجليز والفرنسيون والروس ، أورده ذلك مخوف الموارد ، فلاقى الهزيمة المحققة وهوى آخر الأمر فى مهواة الذل . وهل يفعل ذلك وهو الرجل الذى لا يطمع فى غير مطعم ، والذى كانت الحصافة أهم فضائله ؟ أما إذا أدرك ما يحديق به من الخطر ورجع عن خطته ، فقد يتهم بعدم الوفاء للسلطان . وبينما هو يدقق فى بحث المشكلة من جميع نواحيها ، كان أسربى Acerbi قنصل النمسا العام فى مصر ينصح له بأن يرسل أسطولاً فى الحال ليضرب الأعداء ضربة تقفل فى وجوه الحلفاء^(١) باب التدخل أو الوساطة . ومما يدل على أن هذا النصيح لم يكن الباعث عليه فضول منه ، أن السفن النمساوية ظلت طوال الوقت تحوم حول نوارين ، وهى تحاول إثارة المشاكل ، حتى اضطرها أمير البحر الإنجليزى أن تسلك سبيل الرشاد^(٢) .

(١) دون فى كتاب نوارين السالف الذكر ص ١٥٠ .

(٢) مذكرات مترنيخ ووثائقه الجزء الرابع ص ٣٩٩ منقولة عن دون فى كتابه السالف

الذكر ص ١٨٠ .

على أن الباشا قد أوتي من الحكمة وبعد النظر ما يمنعه من أن يكون أداة في يد حكومة ويانة تسخرها لنيل أغراضها ، مهما حرضه ممثل مترنيخ على أن يتحدى لندن وباريس وسانت بطرسبرج مجتمعة . واقد كان فوق ذلك شديد الحجة لأسطوله ؛ وكان يوقن أن السيادة البحرية لا تكفي لنيلها هزيمة اليونانيين ، بل تحتم عليه أن يكون له المركز الأول في شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان يعرف أنه لا يستطيع إعداد أسطوله قبل أن يحل شهر أغسطس ؛ ويرجو أن يتمكن في خلال هذه المدة من إقناع السلطان بأن حكم الله لا بد نافذ ، وأن معاندة الأقدار لا تجدى نفعا ، وحيجته في ذلك ما سوف يظهره الحلفاء من قوة وجبروت . وكان ذلك بعينه هو ما اهتدى إليه سوات Salt القنصل البريطاني العام بالإسكندرية ، والكابتن هودر Captain Huder وهو رسول خاص موفد من قبل السكونت جيمينو إلى محمد علي . يدل على ذلك ما كتبه أولهما في ٢١ يولييه سنة ١٨٢٧ إلى السفير البريطاني بالإسكندرية يقول :

« لا يزال سموه مستمسكا بالتصريح الذي جهر به لي . ولا شك عندي في أنه يسره جدا أن تظهر أساطيلنا أمام الشواطئ المصرية لتمنع حملته من السفر ؛ ولكنه إذا ظل كما هو غير واثق من تدخل الحلفاء ، تدخلا أشد مما هو الآن (أي أشد من مجرد الاحتجاجات الرسمية المكتوبة) ، إذا ظل كذلك فإنه يشعر أن من الصعب عليه أن يؤخر إرسال الحملة بعد الآن^(١) » .

وكتب هودر إلى سفيره تقريراً في نفس ذلك اليوم . ولكن مرت الأيام ولم يظهر الحلفاء أمام الشواطئ المصرية ، ولم يقوموا بمظاهرة بحرية أمام

(١) وزارة الخارجية البريطانية ٧٨ — ١٦٠ نقلها دون في كتابه السالف الذكر

الإسكندرية . ورأى محمد على أسطوله فتاه به عجباً ، وكتب إلى إبراهيم في ٢٤ يولييه من عام ١٨٢٧ يقول :

« والآن يا ولدى قد صار لنا بعون الله أسطول فخم لم يكن لدولة إسلامية من قبل . وهو واف بكل مطالبنا من حيث سرعته وسلاحه ونظامه . فليس هو الأسطول الذى عرفته من قبل ، وإنما هو أسطول عظيم حديث فى كل شيء ، لم يمتلكه حاكم مسلم قبل الآن ، وإن شاء الله ستراه بنفسك فى القريب العاجل » ^(١) .

ويخيل إلينا أن هذه الأفكار التى كانت تجول فى خاطر محمد على قد وجهت منطقها الوجهة الآتية أو ما يقرب منها :

« لقد أنشأت بحول الله وقوته أسطولا جمل مقامى بين أمراء المسلمين كقوام الحرمين بين مدن العالم ؛ فأصبحت قبلة أنظار جميع المسلمين . وقد أوضحت إلى سولت وهودر (إلى إنجلترا وفرنسا) أننى لا أقصد أن أستخدم هذا الأسطول العظيم لأتحدى به الغرب ؛ أوضحت لهما ذلك وضوحاً ليس بعده وضوح ؛ واست أشك فى أن هذين الرجلين قد فهما مقصدى ونقلتا ما قلت لهما إلى حكومتيهما . فإذا لم تقم أساطيل الحلفاء بعد ذلك بمظاهرة بحرية أمام الشواطئ المصرية أو فى مياه الإسكندرية ، فذلك دليل على أن ما قاله لى أسرى الناطق بإسان مترنيخ صحيح لا شك فيه ، وأن ما تفعله إنجلترا وفرنسا والروسيا إنما هو تضليل وتهويش ، وأن عملهن لن يعدو كتابة المذكرات وإرسال الاحتجاجات ، وأن ليس فى نيتهن محاربتى لأنهن لا يستطعن الاتفاق على عمل مشترك . فإذا أذعنتم لعالهن وأنا واثق من هذه النية كنت موضعاً لسخرية جميع المسلمين الصادق الإيمان .

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسرارى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

ولذلك فإن الواجب يقضى على أن أسير الحملة التي أعددت العدة لسيورها .
وقد قرن القول بالفعل وسافر آخر قسم من هذه الحملة في الرابع من أغسطس
عام ١٨٢٧ ، وكانت مع ما انضم إليها من السفائن التركية والفرنسية مؤلفة من
بارجتين حربيتين وإحدى عشرة فرقاطة وثمان عشرة سفينة من نوع الكورثت
وستة أباريق وست سفن من نوع الجيوات وست حراقات وأربعين نقالة^(١) .
ولما غابت الحملة عن الأنظار ؛ استقبل محمد علي السكبتن هودر وقال له : « لقد
ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً كان ينوء بي وفوضت أمري إلى الله » .

لقد قلنا من قبل إن الباشا كان واثقاً من أن الحلفاء لن يهاجوا هذه العمارة
البحرية ، لأنه أتاح لإنجلترا وفرنسا كل فرصة ممكنة لمنعها عن السفر فلم تفعلوا
شيئاً . ولما كان أسرى لا يفتأ يذكر له أن لندن وباريس وسانت بطرسبرج
لن يعملن عملاً ، فإن من المعقول أن نظن أن القنصل النمساوي كان ينقل إلى
محمد علي كل ما يستطيع نقله من اللفظ الذي يدور حول النزاع القائم بين
كدرنجتن وده رنى ؛ وهل أدل على هذا النزاع من الرسالة التي بعث بها أمير
البحر الإنجليزي لزوجته يقول :

« كل شيء حولي ينادى « الخيانة » ؛ ولكننى أفضّل أن أعتقد أن الذى
أراه هو العجز عن القيام بأعباء العمل ، وهو أمر يختلف عن الدسائس والحيل
الدبلوماسية بعض الاختلاف »^(٢) .

وكان من بين الأسباب التى جمعت كدرنجتن يذكر ما ذكر عن الخيانة ،
أن ضباطاً فرنسيين كانوا يشغلون وظائف هامة فى البحرية المصرية ، وأن

(١) دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٤ .

(٢) المصدر عينه ص ١٦٩ .

كدرنجتن كان رجلاً عفوفاً طاهراً من الخزايا . نعم إن أحد رجال الدبلوماسية الرسميين قد وصفه « بالتهور وحدة الطبع » ، ولكن هذا لا ينفي أنه كان رجلاً صريحاً كل الصراحة ، لا يعرف المداجاة والمواربة ، ويأبى أن يقتنع بأن الفرنسيين كانوا مخلصين حين يسمحون لأبناء وطنهم أن يكونوا مستشارين فنيين للأسطول المصري المرابط في البحار ، كما يتبين ذلك من خطاب أرسله إلى وزير خارجيته .

وعرفت إدارة المخابرات المساوية ما شجر بين ده رنى وكدرنجتن من خلاف ، أو أن أسرى على الأقل قد أظهر لمحمد على معنى وجود أولئك الضباط الفرنسيين في البحرية المصرية ، وأكد له أن اشتراك فرنسا مع حليفيتها الآخرين في الضغط عليه أمر مشكوك فيه ، ما بقى هؤلاء الضباط في خدمته ولم يستدعوا منها ؛ وقد عزز قوله هذا بطول الزمن الذى مضى قبل انضمام الوحدات الروسية إلى المراكب الإنجليزية والفرنسية .

وبعد أربعة أيام من سفر الحملة المصرية ، وصل إلى الإسكندرية الميجر ج . ه . كرادك J. H. Cradock موفداً من قبل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد انتدبه جورج كاننج ليعرض الأمر بصراحة على محمد على ، ويبين له أن إنجلترا جادة في معارضتها لسفر العمارة المصرية ، وأنها مصممة على تنفيذ مواد اتفاق لندن . وقد شعر محمد على عند قدومه — وإن جاء متأخراً — بخرج موقفه ، لأنه لم يكن من أولئك الذين لا يعرفون الخطر حتى يتردوا فيه ، فأصغى إلى أقوال كرادك ، واقتنع بأن قرار الحكومة البريطانية قرار لا مرد له ، وإن تأخرت لندن في إصداره ، وأن المدافع البريطانية على استعداد لتنفيذه . وكان الباشا من جهته صريحاً فيما قال لكرادك ، لأنه كان في مقدوره أن

يخلب لب سامعه بصراحته وإخلاصه حين يشاء ؛ واستطاع سوات أن يظهر
للدوب وزارة الخارجية أن محمدا عليا كان يقبل عن طيب خاطر أن يحجز
أسطوله ، وأنه لم يسمح له بأن يخوض لجة البحر إلا بعد أن أيقن أن عدم قيام
الحلفاء بمظاهرة عدائية لم يترك له غير السبيل التي سلكها . وكان ما بين سوات
والباشا من علاقات شخصية باعثاً له على إطالة المفاوضات معتمداً على تأييد
كرادك الأدبي . وقد لخص سولت نتائج هذه « الحادثات » الدبلوماسية في تقرير
له نقتطف منه الفقرة الآتية :

قال محمد علي : « هذا هو رأيي النهائي ، ليتصل الميجر كرادك بأمر
أسطولكم في الحال ويبلغه أن من رأيه أن يبعث قواد أساطيل الدول المتحالفة
على الفور ضابطاً يحمل خطاباً إلى إبراهيم باشا ، مضمونه أن الأمور قد تخرجت
إلى درجة توجب عليه أن لا يفكر في مهاجمة هيدرا Hydra ، لأن الحلفاء
قد أجمعوا أمرهم على اصطناع القوة لمنع من هذا الهجوم ، وليتظر الضابط رد
إبراهيم ، وعليه أن يقصر مهمته على تسليم هذا الخطاب إليه يدأ بيد » .
فأجبتة : « كل ذلك حسن ، ولكنني أخشى أن لا تكون لهذا الخطاب
فائدة قط إذا لم تؤيده تعليمات سرية من سموكم » ، فنظر إلى الباشا نظرة لها
معناها وقال : « أترك هذا الأمر لي » ^(١) .

وبعد يوم أو نحوه من ذلك الوقت استقبل محمد علي الميجر كرادك ، وأكد
له ما قاله من قبل إلى سولت . وقد لخص دون ما تمخضت عنه بعثة كرادك
بقوله : « إن الباشا لا يلجأ إلى هذه الطريقة السكيفية إلا مع الإنجليز . أما مع
الفرنسيين فهو أشد من ذلك حذراً » ، وهو تحليل لا يخالفه فيه ^(٢) ، ومعناه أن

(١) المصدر عينه ص ١٥٧ .

(٢) المصدر عينه ص ١٦١ .

محمدا عليا المشهور بدهائه أيقن أن إنجلترا جادة غير هازلة ، وأن فرنسا لم تكن كذلك . فلما لم تستطع لندن وباريس أن تعملأ بما أشار به على سولت وهودر ، اقتنع بأن اتفاق الحلفاء إنما هو خداع وتضليل . وقد استدل من أقوال كرادك على أن إنجلترا لا تتردد في امتشاق الحسام للدفاع عن المبدأ الذي قام عليه اتفاق لندن ، سواء كانت فرنسا جادة أو هازلة .

وكانت معرفة هذه الحقيقة هي التي جعلته صريحا في موقفه بإزاء إنجلترا ، وكتوما حذرا بإزاء فرنسا . وفي اليوم الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٨٢٧ أقبل على نوارين أمير البحر الإنجليزي فى السفينة آسيا Asia تصحبه جنوا Genoa وألبون Albion . وكانت العمارة المصرية كلها راسية فى ذلك الميناء بعد أن بلغته فى التاسع من سبتمبر . ولم يدخله أسطول الحلفاء حتى حل اليوم الثانى والعشرون من ذلك الشهر . وفى خلال هذه الفترة ، وبينما كان السير إدورد كدرنجتن ينتظر قدوم أمير البحر الفرنسى الذى سيكون تحت رياسته ^(١) ، رأى نفسه مضطرا أن يبلغ قائد القوات العثمانية المرابطة فى ثغر نوارين أنه سيجنعه بالقوة من مهاجمة أى جزء من بلاد اليونان .

وقد أبلغه ذلك بمذكرة مؤرخة ١٩ سبتمبر . ولكن حدث رغم هذا أن قسما من الأسطول العثمانى (لا المصرى) أقلع من الميناء فى اليوم الحادى والعشرين من ذلك الشهر ، فاتخذ الأسطول الإنجليزى أهبطه للقتال على الرغم من قلة عدده واقترب من الأسطول التركى ، وظن أن تصادم القوتين أصبح لا مفر منه . لكن حدث فى اللحظة الأخيرة أن لاح الفرنسيون فى الأفق فتبدل الموقف غير الموقوف ، ولم يحاول القائد العثمانى مغادرة الميناء ، وسمح له — كما يقول صاحب سيرة السير

(١) بورشير فى كتابها السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٣٧ .

إدورد كدرنجتن — أن ينضم مرة أخرى إلى الأسطول المصرى الراسى فى الميناء بعد أن اتفق إبراهيم أن يجتمع بأمراء الأساطيل المتحالفة^(١) . وهكذا قضى الأمر ولم يحدث حادث مكدر ، وإن كان الأمر العام الذى أصدره كدرنجتن من السفينة آسيا فى عرض البحر بتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٨٢٧ قد أعاد ذكر العبارة المشنومة عبارة « المدفع » إذ قرر ذلك الأمر أن :

« الهدنة التى عرضت على الطرفين (الأتراك واليونانيين) قد رضى بها اليونان ورفضها الأتراك ؛ ولذلك أصبح من واجب القوات البحرية المتحالفة أن تبدأ بالاتصال باليونانيين اتصالاً ودياً ، وأن تصدر بعد ذلك كل ما يرسل من تركيا ومن إفريقيا كلها من رجال وسلاح وغيرهما ليستخدم ضد اليونان » ، ثم أعلن بعد ذلك أنهم :

« سيحاولون أولاً بكل ما لديهم من الوسائل أن يمنعوا كل ما قد يؤدى إلى استخدام القوة ؛ ولكنهم سيلجؤون عند الضرورة ، وبعد أن تنفذ كل الوسائل الأخرى ، إلى قوة المدفع ليحولوا دون وصول الإمدادات السالفة الذكر^(٢) .

وكانت لهجة الخطاب الذى أرسل إلى القائد العثمانى لا غبار عليها ، كما أن الظروف كانت تبرر إرساله كل التبرير ؛ لكننا لا نشك لحظة فى أنه لم يكن من الحكمة أن يرسل إلى إبراهيم فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٢٧ خطاب مثله فى صيغة الغائب جاف اللهجة مصوغ فى الألفاظ الآتية :

« لكيلا يكون لدى سمو إبراهيم باشا أى شك فى نيات الملوك المتحالفين ،

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٧٢ .

(٢) المصدر عينه ص ٤٥٢ .

يتشرف نائب أمير البحر السير إدورد كدرنجتن ، القائد الأعلى لقوات صاحب الجلالة البريطانية في البحر الأبيض المتوسط ، بأن يرسل إلى سموه صوراً من بعض الأوراق الخاصة بهذا الموضوع الهام ، والتي يسير على مقتضاها . وسيرى منها سموه أن قواد الأساطيل لا يستطيعون أن يحيدوا قط عن تنفيذ المعاهدة بحذافيرها مهما كانت العواقب ^(١).

وكان الذي أُملي هذه المذكرة على أمير البحر الإنجليزي عواطف نبيلة تعلى من قدره . فقد أراد أن يكون فيها صادقاً فيما يعنيه ، دقيقاً فيما يعبر عنه ؛ ولكنه مع الأسف سلك أقرب السبل لاستثارة حفيظة إبراهيم ومضاعفة الصعاب التي كانت تحف بموقف ينذر في كل وقت بأوخم العواقب . وكان كدرنجتن يجهل اللغة العربية حديثاً وكتابة ، كما كان إبراهيم في ذلك الوقت يجهل الفرنسية أو لا يعرف منها إلا النذر اليسير . فكانت النتيجة أن الرجلين الصريحين الصادقين الخالصين بقي كل منهما بعيداً عن صاحبه ، لأنهما لا يستطيعان أن يتفاهما . وكان كلاهما إذا أغضب فارقاً ثره ولجأ إلى سيفه ، وقد وقف بعين صاحبه وسمعه ، يحول بينه وبينه لئلا يترجموا ، ولا يستطيع أن يتصل به ذلك الاتصال الشخصي ، ويتبادل معه ذلك العطف الفردي ، الذي كان لا بد أن يزيل ما بينهما من نزاع لو أمكنهما أن يتفاهما . عجزا عن ذلك كله ، وكانت هذه الرسالة الرسمية الجافة المصوغة في صيغة الغائب هي عين الرسالة التي تحمّلها ترجمة المترجمين إلى بلاغ نهائي صريح . وزاد الطين بلة أن ده رنى شعر في اليوم التالي أن من واجبه أن يترجم الرسالة المشثومة إلى اللغة الفرنسية . فلما ترجمها ووقعها القائدان وجد المترجم فرصة أخرى تزيد النار ضراماً . وكان أمير البحر الفرنسي لم يكفه

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤٧٥ .

أن يؤكد لإبراهيم المعنى الحرفي لعبارات كدرنجتن ، فعرض أن يذهب بنفسه إليه « ليبين له حقيقة الخطر المصدق به ، والذي ينطوى عليه التهديد الوارد في الخطابين »^(١) . وكان يحمل معه فوق ذلك مذكرة شخصية كتبها محمد علي يخبر فيها ابنه إبراهيم : « أن ينعم النظر في الأخبار التي ترسل إليه ويتفهم حقيقة معناها »^(٢) . وكان في هذه اللغة من الغموض ما يجعلها تحتل كل معنى يراد أن يفهم منها . وقد شاء محمد علي أن يكتبها كذلك لأسباب لا يعرفها إلا هو ، ولكن ده رنى أراد أن يتخذها سلاحا يرهب به رجلاً اشتهر بين الرجال بأنه « ليث غابة ، ماضى العزيمة ، مسدد الرأى » ، كما وصفته رسالة رسمية تلقتها وزارة الخارجية البريطانية في ٨ مارس سنة ١٨١٦^(٣) .

واستقبل إبراهيم أمير البحر الفرنسى أحسن استقبال ، كما تبين ذلك من التقرير المطول الذى أرسله ده رنى إلى باريس ؛ فإنك لا تجد في هذا التقرير شيئاً من التهديد وإنما تجد فيه قوله :

« لم يحاول إبراهيم أن يخفى عنى ارتباك . . . ومما قاله لى : « أنك تصر على أن أقف كل الأعمال الحربية ، ثم تسمح مع ذلك لليونانيين بأن يفعلوا ما يشاءون ؛ وبذلك تطلب إلى مطالب كان الأجدر بك أن تتقدم بها إلى قبل أن يقطع أسطولى من الإسكندرية ، ولو فعات ذلك لحسم النزاع منذ زمن بعيد »^(٤) .

وكانت نتيجة هذه المقابلة أن أوضح إبراهيم إلى أمير البحر الفرنسى أنه

(١) نوارين تأليف دون ص ١٨٥ .

(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .

(٣) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ٤٦ .

(٤) دون فى كتابه السالف الذكر ص ١٨٨ .

يسره كل السرور أن يجد مخرجاً من هذا المأزق الحرج ، وأنه يقبل مقتباً كل أمر يصدره إليه محمد علي ، ولكنه يصر على أن من واجب الحلفاء إذا أرادوا منه أن يقف الأعمال العدائية أن يلزموا بذلك اليونانيين أيضاً . وأبى أن تغل يده ثم تطلق لأعدائه حرية العمل .

وذلك موقف ليس فيه شيء من الغموض ؛ وهو الموقف الذي لا بد أن يقفه كل قائد حازم . ولو وضع ده رنى وكدرنجتن نفسيهما موضع إبراهيم لما غابت عنهما قط هذه الحقيقة . ولو أنهما فعلاً ذلك ، وتذكرا أن الصعوبة اللغوية جعلت التفاهم بينهما في حكم المستحيل ، وعرفا مع ذلك أن المترجمين قلما يؤدون واجبهم على الوجه الأكمل ، لو أنهما عرفا كل هذا لما وقعت واقعة نوارين مطلقاً ، أو وقعت بعد هذه المقابلة مباشرة .